

اجتهادات من يقدرُ على الحب؟

يبدو الفالنتاين أكثر المناسبات الاحتفالية في العالم التباسًا، إن في تاريخه، أو في معناه المرتبط بالحب. تاريخه مُختلفٌ على كثيرٍ من تفاصيله. ومعناه مُلتبسٌ لاختلاف بعض جوانبه من مرحلة إلى أخرى.

ورغم أن دلالاته السائدة الآن تحصرُ الحب في علاقة عاطفية بين رجل وامرأة، فالالتباسُ الذي صار أحد معالمه يدفعُ للاجتهاد بشأن تفسير مغزى ازدياد الاهتمام به، واكتسابه طابعًا عالميًا، منذ منتصف القرن 19. فهذه هي الفترة التي تبلور فيها معنى جديدٌ للإنسان يقومُ على قيم وسلوكياتٍ موجودٍ معظمها منذ عصورٍ أقدم، ولكنها بقيت محصورة في أطرٍ محدودة، ولم يربط بينها رابطٌ معرفي، إلى أن أتاح التراكم التاريخي ظروفًا سمحت بتبلور مفهوم الإنسانية الحديث.

يقوم هذا المفهومُ على التفاعل الإيجابي والتعاطف والمحبة، بما يعنى أن يُحب الإنسان غيره، كما نفسه، ويشارك في تحقيق الخير العام، ويُعنى بتحسين حياة الآخرين، ويتألم لآلامهم، ويرفض الظلم الذي يقع عليهم، ويساعد من يحتاجون عونًا بموجب إيمانٍ بأن للآخرين حقًا فيما أعطاه الله إياه إذا كان من المؤمنين، أو اقتناع بأن عليه واجبات اجتماعية إذا لم يكن مؤمنًا. ورغم صعوبة قياس معدلات انتشار معنى الإنسانية هذا، توجد شواهد على أنه اتسم بالتذبذب حتى أواخر القرن 20، ثم أخذ في الانحسار بشكلٍ مستمر.

وعندما نتأمل حالة العالم اليوم، ربما نجد أن مفهوم الإنسانية لم يكن في أى وقتٍ مضى أضيق مما هو الآن. ولهذا تُثير طُغوسُ الفالنتاين شيئاً من السخرية في الوقت الذي تزدادُ الكراهيةُ والاحتقانُ ورفض الآخر في العلاقات بين الأشخاص والجماعات والدول على حد السواء.

وفي ظل هذا الانحدار يقلُّ عددُ من يمكن القول عن الواحد منهم إنه إنسان. فليس كلُّ كائنٍ بشريٍّ إنساناً وفق مفهوم الإنسانية. وإذا ازداد هذا الانحدارُ، ربما ينحسرُ أيضاً التطلعُ لأن يكون الكائنُ البشريُّ إنساناً، ويحلُّ محله أُملاً في ألاَّ يتدنى إلى مُجرد كائنٍ حي هو الأكثرُ تخريباً للحياة على الأرض. وهكذا يحضرُ عيدُ الحب، فيما يغيبُ إلا قليلاً الإنسانُ القادرُ على أن يُحب. فمن يقدرُ على الحب اليوم؟